الفصل الرابع

المناسبة في وجوه النظم والصورة البيانية

المبحث الأول

المناسبة والتناسب في صور التشبيه

التشبيه لغةً: قال ابن منظور: «الشبه والشبيه المثل، أشبه الشيء، وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبه عليّ، وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كلّ واحدٍ منهما صاحبه، والتشبيه التمثيل»(١).

اصطلاحاً: هو عقد مشابهة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر، وحده السكاكي بقوله: «إنّ التشبيه مستدع حرفين مشبّهاً ومشبّهاً به، واشتركا فيهما من وجه وافترقا من آخر»(٢).

وقال الرماني: «التشبيه هو العقد على إنّ أحد الشيئين يسد مسدّ الآخر في حسن أو عقل، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس»(٣).

فنلاحظ أنّ التشبيه في الأصل: يطلق على الإخفاء، فيقال: شُبِّه هذا أي أخفي، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(٤)، أي: أخفي عليهم عيسى ابن مريم، فظنوا أنّهم صلبوه، وقتلوه، وما قتلوه ولكن شبّه لهم. ويقال: هذا أمر مشتبه فيه، أي: فيه خفاء، ويقال: هذه شبهة، أي: مدعاة للريب.

---

(١) لسان العرب، مادة (شبه).

(٢) مفتاح العلوم: ١٥٧.

(٣) النكت: ٧٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

ويعرف أبو هلال العسكري بقوله: «التشبيه: الوصف بأنّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، شاب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه»[1].

وابن رشيق يعرفه بقوله: «التشبيه صفة لشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو من جهات كثيرة، لا من جميع جهاته؛ لأنّه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أنّ قولهم: (خد كالورد) إنّما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه»[2].

وقد عرفه العلوي بقوله: «هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بالكاف ونحوه، أو هو الجمع بين الشيئين أو الأشياء بمعنى ما بواسطة الكاف ونحوها»[3].

وقال الخطيب القزويني: «التشبيه: هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى»[4].

ويعد التشبيه من أهم الفنون البلاغية وأقدمها استعمالاً عند الشعراء، كما يعد مقياساً في تعيين شاعرية الشاعر[5]. وقد وصفه صاحب الطراز بأنه: «بحر البلاغة وأبو عذرتها وسرها ولبابها وإنسان مقلتها»[6]. ولا تخفى أهميته وشيوعه في اللغة الشعرية، فهو يمنحها القدرة على التصور الدلالي، كما أنّ له

---

(١) كتاب الصناعتين: ٢٣٩.

(٢) كتاب العمدة: ٢٥٦/١.

(٣) كتاب الطراز: ٢٦٣/١.

(٤) ينظر: متن التلخيص في (مجموع المتون الكبرى): ٤٧٣.

(٥) ينظر: البديع: ١٧٣.

(٦) الطراز، العلوي: ٣٢٦/١.

قدرة كبيرة على بناء دلالة الخيال التصوري[1].

واعلم أنّ للتشبيه موقعاً حسناً في البلاغة- وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي وإيتائه البعيد من القريب، يزيد المعاني رفعةً ووضوحاً، ويسكبها توكيداً وفضلاً ويكسوها شرفاً ونبلاً. فهو يجمع بين المبالغة والبيان والإيجاز والتوكيد[2].

ونذكر هنا بعض الأمثلة التي تبين معنى التشبيه وماهيته بشكل أوضح. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[4].

ما بين الآيتين من تصريف المعاني ومن مشتبه النظم جليٌّ لا يخفى؛ ففي آية سورة آل عمران جاء قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ دون أداة تشبيه مع جمع السماء. وقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[5] وفي آية سورة الحديد جاء قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾.

و: ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بدأه تشبيه مع ذكر المشبه المضاف (عرض) وإفراد المضاف إليه (السماء)، و﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾[6].

---

(١) ينظر: بحث الصورة الشعرية: ٣٦.

(٢) ينظر: فن التشبيه: ٦٤، ٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٥) ينظر: العزف على أنوار الذكر: ١١٨.

(٦) ينظر: المصدر السابق: ١١٨.

وغير خفي أنّ هذه المفارقات لها تأثير كبير في سياق السورة الجزئي وسياقها الكلي. وفي الآية سورة آل عمران كان الأمر بالمسارعة وفي آية سورة الحديد بالمسابقة. وكانت الجنة الموعود بها في آية سورة آل عمران عرضها السماوات والأرض، والجنة الموعود بها في آية سورة الحديد عرضها كعرض السماء والأرض، وفي آية سورة آل عمران كانت الجنة للمتقين، وفي آية سورة الحديد كانت الجنة للذين آمنوا»[1].

إنّ سياق سورة آل عمران هو في بيان ركن العقيدة وإقامة الأدلة على وحدانية الله ﷻ وكذلك التشريع[2]. أمّا آلية سورة الحديد فقد جاءت في سياق التشريع والتربية، وتبني المجتمع الإسلامي على أسس العقيدة والخلق الكريم، والتشريع الحكيم[3].

وفي لفظ ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ هنالك رمز إلى أنّ كلهم مستوون في القرب أو متقاربون؛ لأنّ المرتبة العليا واحدة وهي مرتبة السابقين المقربين، وأنها غاية الرتب الإنسانية[4].

قال البقاعي: «فآية (آل عمران) الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة أبلغ؛ لأنّها للحث على التمرد على النفس والمال وجميع الخطوط أصلاً ورأساً، ولذلك كانت جنتها للمتقين الموصوفين. وأمّا هذه -أي آية الحديد- ففي سياق التصديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنته

---

(١) ينظر: العزف على أنوار الذكر: ١١٩.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ١/١١٥.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٣/٣٠٧.

(٤) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٦/٢٥٨.

الذين آمنوا»[1].

وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، حيث دلّ التشبيه في الآية الكريمة على معنى الإنكار والتوبيخ، وتمّ ذلك من خلال معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله من إنّ: رجلاً قال: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن اعتمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل ممّا قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكني إذا صليت دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، فجاء التشبيه لغرض الإنكار والتوبيخ لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة على الهجرة والجهاد. وقال البقاعي: «أنكر على من لم يفرق بين الصنفين موبخاً لهم والآية من الاحتباك حذف أولاً المشبه به لدلالة المشبه عليه وحذف المشبه لدلالة المشبه به عليه...»[4].

قال الشاعر يمدح:

كـــأن أخلاقـــك في لطفهـــا ورقة فيهـــا نـــسيم الـــصباح

---

(١) نظم الدرر: ٤٥٤/٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٩.

(٣) ينظر: أسباب النزول: ٢٣٣.

(٤) نظم الدرر: ٢٨٩/٣.

فالشاعر معجب بأخلاق ممدوحة في لطفه ورقته، ولكنه أراد أن يزيد هاتين الصفتين قوة أكثر، ففكر فلم يجد ما يضاهي الخصلتين ويشاركهما في الصفة إلاّ نسيم الصباح فضاهاه بهما، وليوضح هذه المضاهاة والمشارك أتى بـــ«كأن».

وقال شاعر آخر:

العمـــــر مثـــــل الـــــضيف أو كالطيف لـــيس لـــه إقامـــة

فالشاعر بحكم التجربة والمشاهدة يعرف أنّ العمر شديد القصر سرعان ما يزول وينقضي، فأراد أن يأتي بشيء هو شبيه لهذا العمر في شدة القصر وسرعة الزوال، فتأمل فوجد ما هو شبيه ومقارب له في هذه الصفة وهما الضيف والطيف في عدم إقامتهما طويلاً وسرعة رحيلهما وذهابهما.

ولبيان المقاربة أتى بـــ(مثل) و(الكاف).

ومنه أيضاً تشبيه القلوب بالحجارة: كما في قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] أي: في القسوة وعدم التأثر، فشبّه حال قلوبهم وهو إعراضها عن الاعتبار بقسوة الحجارة في إنها لا يجري فيها لطف العمل؛ إذ القسوة في الأصل تعني: اليبس والصلابة، وفي ﴿قَسَتْ﴾ استعارة تبعية أو تمثيلية[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١/٢٩٥.

وكذلك التشبيه بالأنعام: كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]، ومعنى التشبيه بالأنعام المبالغة في غفلتهم، وعدم انتفاعهم بأسماعهم وأبصارهم فبذلك شبّهوا بالأنعام[2]، وهو تشبيه جديد له دلالة مبتكرة يعود الفضل فيها إلى القرآن الكريم[3].

أركان التشبيه:

الأصل في التشبيه أن يكون فيه أربعة أجزاء هي:

١- المشبه.

٢- المشبه به، ويطلق عليها (طرفا التشبيه).

٣- أداة التشبيه الدالة عليها كالكاف ونحوها.

٤- وجه الشبه: وهو المشترك الجامع بين المشبه والمشبه به، ويجب أن يكون أقوى وأظهر منه في المشبه به منه في المشبه[4].

طرفا التشبيه:

طرفا التشبيه هما المشبه والمشبه به، وهما ركناه الأساسيان ولا يقال تشبيه إلاّ إذا كانا فيه.

وأساس التشبيه عند قدامة بن جعفر أنه يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها[5].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١/١٢٥.

(٣) ينظر: بحوث منهجية: ٤٨-٤٩؛ البلاغة الميسرة: ١٢٧-١٢٨.

(٤) ينظر: بحوث، منهجية: ٤٩.

(٥) ينظر: نقد الشعر: ٧٧-٧٨.

وقد تابع ابن رشيق قدامة في رأيه يقول في كتابه ما معناه: إنّ المشبه لو ناسب المشبه به مناسبة كلية لكان إياه، كقولهم: (فلان كالبحر) إنما يريدون كالبحر سماحةً وعلماً، وليس يريدون ملوحة البحر وزعوقته[1].

ويقول أبو هلال العسكري: «ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة وإن شابهه من وجه واحد، مثل قولك: وجهك مثل الشمس ومثل البدر، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما، وإنما شبه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن. وعلى هذا قول الله ﷻ: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾[2]، وإنما شبّه المراكب بالجبال من جهة عظمها، لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع الجهات لكان هو هو»[3].

وهذه بعض الأمثلة التي توضح طرفا التشبيه فالعرب تقول: (خدّ كالورد) إنما أردوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضر كمائمه، فنواحي الائتلاف والاتفاق في الحمرة والطراوة، ونواحي التمايز والاختلاف في الصفرة والخضرة[4].

والعرب تقول أيضاً: (فلان كالليث)، إنما يريدون كالليث شجاعةً وجرأةً وقوة، لا شتامة[5] الليث وزهومته[6].

---

(١) العمدة: ١/٢٥٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٤.

(٣) كتاب الصناعتين: ٢٣٩.

(٤) ينظر: بحوث منهجية: ٤٩-٥٠.

(٥) الشتامة: العبوس.

(٦) الزهومة: الرائحة الكريهة.